مختلط المنصورة..

دعوة لاستمرار الحياة

أن تبدأ حياتك الإبداعية بكتابة الرواية، والبحث عن عالم بكر أمر مدهش، ويحسب للمبدع؛ لا سيّما إذا لم يكن قد اقترب من هذا العالم أحد غيرك من المبدعين.

هذا ما فعلته الروائية الشابة داليا أمين أصلان ابنة مدينة المنصورة، فى وسط الدلتا، ففى روايتها الأولى "المختلط – ود" تقدم الوجه الكوزموبوليتانى من المدينة، فالعنوان يصيب هدفين بحجر واحد، إذ تقدم منطقة فى وسط مدينة المنصورة سميت "بالمختلط" لوجود المحكمة المختلطة، فضلًا عن اختيار الجاليات الأجنبية العيش فيها، أما "ود" فهى فتاة قادمة من الإسكندرية، المدينة الكوزموبوليتانية منذ مئات السنين، تزوجت من أحد أبناء المنصورة، وعاشت فى المنطقة ذات التأثير على الشخصيات والفضاء فى آن.

الفضاء المكانى يتماهى – منذ بداية النشأة فالتطور فالأفول – مع الأحداث، هو أحد أهم المثيرات للمخيلة الإبداعية، حيث يتم إيقاظ هذا العالم عبر الحفر المستمر، وتقليب التربة، والحرص الدائب على ترميم الذاكرة، مما سقط منها عبر الأيام، فالناس فى المكان يرتحلون ويختلفون ويتعاركون، يحبون ويبغضون ويموتون، فى حركة مستمرة لا تهدأ ولا تلين، عبر فصول تحمل أسماء شخصيات الرواية، "ود"

زوجة أحمد جلالة، ومصطفى جلالة، والجازية، والأم الكبرى، هذه الأسرة هى الشرنقة السردية؛ التى تفرخ بعد ذلك شخصيات تقترب من هذه الأسرة، سواء بالخدمة كـ "شوقة"، أو بالتبنى كـ "فهمى"، أو بالتعرف إليها فى ظروف معينة، أو بالمصاهرة، أو الشراكة فى التجارة، أو الجوار.

إنها بانوراما حياتية تلعب على وتر الحنين إلى المكان والبشر، والتطلع إلى مكان أكثر حميمية، يحقق للذات إنسانيتها.

تحرص الكاتبة على استحضار عوالم مختلفة، تتعدد فيها الثقافات، البنى الرئيسة تعبر عن هذا الصراع الدائر بين الشرق والغرب، بين ابن ثقافة مستقرة والمغامر، بين ثقافة ترى فعل الخير أجدى من كل ما هو مادى، وأخرى تعلى من الماديات على حساب كل ما هو إنسانى، وإن طالعنا ما يمكن أن نطلق عليه الروح الإنسانية، نلمحها لدى المرأة الغربية، حيث التعاطف مع الغريب، وتقديم المساعدة، والالتزام، والوفاء بالوعد.

ثمة ثقافة بدوية تتسم بالرحابة، وتقبل الآخرين، ومنحهم التعاطف والأمان، وثقافة ترتكز على النسوى فى بث مفاهيم وممارسات نسوية، تصل للحد الشبقى فى الممارسات الأيروتيكية، يتجلى ذلك فى الجزء الثانى من الرواية " بنت محمود"، فما كان يعبر عنه تلميحًا صار مجسدًا فى مواقف سردية، لا تثير الغرائز، لكنها تقف بجانب المرأة تؤكد معاناتها، ومدى إحساسها بالقهر والمهانة لكونها

امرأة. هذه مفارقة نجحت داليا فى تأكيدها عندما أسندت للمرأة دور السارد المطلق فى الجزأين.

يبدأ الخطاب الروائى من عشرينيات القرن الماضى، ويمتد إلى ما بعد ثورة 25 يناير.

المختلط منطقة سكنتها الطبقة الوسطى. كان محظورًا على المصريين العيش فيها، لكن بعد فترة بنت أسرة " الجلالية " مسكنًا بها، ومن هذا البيت انطلقت الأحداث: كيف تعامل الخواجات مع المصريين، وضحكوا عليهم، وسلبوهم أموالهم؟ كيف عانى المصرى ابن البلد من الجور والقهر والظلم، على يد الأجانب ومحاكمهم المختلطة.

إن شخصية "ود" هى ضابطة الإيقاع السردى وخصوصًا فى بداية الجزء الأول، كيف عانت ابنة مدينة الإسكندرية من تكاتف كنتها والجازية ضرتها، التى لم تنجب الأبناء للزوج.

فى ضربات فرشاة سريعة ترسم لنا داليا أصلان ملامح الشخصيات ومواقفها، وتمضى إلى غيرها، فلا وقفات طويلة تأملية؛ إذ يتنقل الأبطال بين المختلط إلى الإسكندرية إلى الشرقية إلى إيطاليا؛ بمرافقة الخواجة باحثون عن أهله. تهبنا الكاتبة حكايات عن الأبناء والزوجة، وعوالم غريبة على البسطاء، يقابل الخواجة معروفهم بالمعاناة والسجن، يفقدون حتى قوتهم، حتى أموالهم التى تحول إليهم من مصر! وفى النهاية لا يعترف الخواجة بأفضالهم.

لا يسير الجزء الأول من الرواية فى خط مستقيم. ثمة منحنيات وتعرجات، فعندما تشعر الكاتبة أن المتلقى يريد معرفة المزيد عن مصير المغتربين، تنقلنا إلى عالم "المختلط" وحياة البشر فيه "قضت ود بقية حملها تعمل فى البيت مع الخدم بالطابق الأرضى، لتختفى عن عيون حماتها وضرتها، تخبز، وتكنس، وتطعم الدجاج، وترتب جلسة زوجها، وتطهو طعامه"

ها هى الرواية التاريخية المصرية تمد جذورها، ويستمر سلسالها، عندما تكتب داليا أمين أصلان روايتها بجزأيها "المختلط" و"بيت محمود"، فهى تصطف بجوار رضوى عاشور ونجوى شعبان وسلوى بكر وسهام بيومى وهالة البدرى وسهير المصادفة وعزة رشاد وغادة العبسى، ممن كتبن التاريخ من وجهة نظر امرأة، لا تعتمد على استلهام التاريخ بقدر خلق ما هو موازى للتاريخ الرسمى.

يأتى التاريخ هنا كخلفية للأحداث، تبرز الأحداث التاريخية خجولة فى البداية، بينما ترتكز نهاية الجزء الثانى من الرواية على أحداث معاصرة، فثمة إشارات سريعة إلى ثورة23 يوليو، وقرارات عبد الناصر، وحرب 56، وحرب 67... إلخ، بينما تدور الأحاديث عن حرب الخليج، ومعاناة الليبيين فى عهد معمر القذافى، كما تهيمن وقائع وأحداث ثورة 25 يناير، وما تلاها من أحداث فى الجزء الثانى من الرواية.

لم تحصر الكاتبة شخصيات وأحداث روايتها فى منطقة "المختلط"، بل إن حركتها تمتد فى فضاء يتجاوز "المختلط" مع

تنامي الأحداث والوقائع السردية؛ لاسيّما حينما يتخذ بعض أفراد أسرة مصطفى جلالة من القاهرة مقامًا لهم، تاركين "المختلط" لمن كانوا يعملون لديهم، أو ينتسبون إليهم بالمصاهرة، وهناك من يرحل إلى الشرقية، ومن يفكر فى الهجرة من مصر، ومن يهاجر فعلًا إلى كندا أو أستراليا.

تأخذ الساردة منحى مغايرًا عن البداية، حيث يبطئ إيقاع السرد، ويتمطى، عبر حكايات طويلة لشخصيات جديدة منذ ظهورها المفاجئ والغريب، بما يشكل علامة استفهام وتساؤل لكل الشخصيات، ففهمى الطفل حار فى أمره الجميع: هل هو عربى أو أجنبى؟ هل هو مسلم أو يدين بديانة أخرى؟

لكن إنسانية أحمد جلالة الرحبة، تقبله، كأنه ابن له يرعاه ويسكن فى الجوار، ينشئ محلًا للحلوى، ثم يوسع مشروعه التجارى، فيفكر فى فتح أفرع أخرى، هكذا هى مصر التى تعايشت مع الغزاة، فصاروا جزءًا منها.

إن التحولات الاجتماعية التى شهدتها مصر بعد 23 يوليو ستجعل الخطاب السردى يتجه إلى حياة أسرة الخدم مثل شوقة وقمراية ورحمة وسعد فواز وشعبان وماهر ومعيز وسناء، وسيهجر الأصحاب الأصليون المكان، تغيرت القيم والمفاهيم، صار الزمن غير الزمن، والمكان غير المكان "أنظر الآن للطابق الثانى من القصر، لقد نزعت كل النوافذ والأبواب عن مكانها، وأصبح البيت مستباحًا، يقولون بعد التأميم الدولة تركته فى ذمة المحافظة، التى

طرحته للبيع بأعلى سعر، وقيل إن فلانًا اشتراه، لكننا طوال تلك الأعوام لم نر هذا الفلان ولم يهتم بالعقار، صار العقار نهبًا لمغير يسرق محتوياته ليلًا، وتتبعه كلبته".

ستكون ابنة شهدى الوسطى هى الساردة للجزء الثانى منذ طفولتها إلى مقتل ابنها محمود عقب أحداث رابعة، هذه الحفيدة القريبة من جدتها، المتمردة على التقاليد، منذ كانت مراهقة، فزواجها الأول من ماهر، ثم زواجها من يحيى فهمى الأشعل، ورحيلها معه إلى مدينة سبها الليبية، وموته المأساوى، فعودتها إلى مصر. كان على "ابنة شهدى" أن تحيا النكبة تلو الأخرى، تعيش الغربة والقلق والخوف، وتفقد زوجها فى مدينة سبها الليبية، وتعود إلى موطنها، وتسكن فى شقة مكرم عبيد.

تغرق الرواية فى تفاصيل سردية كثيرة، وتظهر شخصيات جديدة، وتعاود الظهور شخصيات ظننا أنها رحلت عن دنيانا، أو عن ذاكرة الساردة، لكنها تعود من حياتها فى الزمن الماضى، تستحلبه، تصل ما انقطع، تتحول الرواية إلى سرد معاناة الساردة، فتصطدم بالأمراض الاجتماعية المتفشية فى المجتمع المصرى، معوقات إلحاق طوفى بالمدرسة، إمكانية علاج ساقه المصابة، رغم ذلك لا تنسلخ الحكاية عن أهل المختلط: الجدة نفيسة، وزيارة قبر فهمى، وما آل إليه حال بعض من عاشوا قريبًا من الحى، أو قاطنو الحسينية والمناطق المجاورة، تزور الساردة المختلط فى محاولة لإحياء ما تهدم، وإعادته إلى الحياة.

ابنة شهدى تعاني فى هذا الجزء، وكأنها بطل ملحمى يصارع قدره، تحمل على عاتقها بقاء امتداد أسرة أحمد جلالة وفهمى الأشعل، تجاهد لتربية الأبناء، "طوفى" محمود، وحينما تشعر أن السفينة وصلت لبر الأمان تفقد ابنها محمود، عقب أحداث ثورة 25 يناير، تتقاطع معاناة البطلة بمعاناة مصر الحبلى بالمتغيرات، ومن ثم تنهى الكاتبة روايتها بالتأكيد على استمرار الحياة.